مظاهر التكامل بين العلوم الشرعية والعربية

" التفسير نموذجا"

إعداد

الأستاذ الدكتور

عبد الفتاح عبد الغني العواري

عضو مجمع البحوث الإسلامية، ورئيس مركز الإمام الأشعري

وعميد كلية أصول الدين سابقا – جامعة الأزهر الشريف

١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م

مظاهر التكامل بين العلوم الشرعية والعربية

" التفسير نموذجا"

الأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح عبد الغني العواري

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعد،،،

فيسرني أن أشارك ببحث في هذا العنوان الجامع المانع الذي يؤصل لقضية من أهم القضايا التي بتحققها يقع التكامل المعرفي والتآخي والتآزر والتعاضد بين سائر العلوم سواء أكانت تلك العلوم علوم آلة، أو علوم مقاصد؛ فكان هذا العنوان التكامل المعرفي بين العلوم وأثره في التوازن الفكري والواقع المجتمعي عنوانا من الأهمية بمكان، وبتحققه تتحقق التكاملية، وتنتظم حبات هذا العقد الفريد المتسق الذي لا يقع بينه أدنى خلل، ويأخذ كل علم من هذه العلوم ما يحتاج من العلم الآخر، وبهذا يستقيم البناء المعرفي، وتتحقق القواعد المعرفية للعلوم، وإذا نظرنا بحكم تخصصي الدقيق مع اجالة النظر فيه وطول المعايشة له والملازمة الدائمة والصحبة الطويلة التي انزوت منها العيون وهو علم التفسير؛ فإننا نجده علما انتظم في سلكه سائر العلوم، فالتفسير لا يتحقق الهدف منه ولا تتكشف الغاية من ورائه إلا اذا كان طالب التفسير ومن يتصدى لهذا العلم الشريف متضلعا في علوم العربية كعلم اللغة والاشتقاق وعلم النحو وعلم الأدب وعلوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وعلم التوحيد، وعلم أدب البحث والمناظرة ، وعلم المنطق والحوار والجدل، وعلم أصول الفقه والحديث وعلومه، والسيرة النبوية، وعلم أحوال البشر والتاريخ، وغير ذلك من هذه العلوم التي متى أتقنها من يريد أن يتصدى لتفسير كتاب الله؛ كان مؤهلا بأن يصرح ويجلي ويبين للناس المقصود من كلام الله على قدر طاقته البشرية .

السيدات والسادة:

لو ذهبنا نتتبع كتب التفسير لوجدنا عناية المفسرين بارزة في اغترافهم من

سائر العلوم واتقانهم لها وأخذهم بالحظ الأوفر من أجل تحقيق معرفتهم للمراد من كلام الله عز وجل، وكيف يصلون إلى الكشف عن أسرار كلماته، ومعرفة الحكمة البالغة منه بقدر طاقتهم البشرية، فلا نرى واحدا منهم صرف نظره عن تلك العلوم التي تعد أدوات ووسائل يستعين بها الباحث في تفسير كتاب الله عز وجل على معرفته، والكشف عن هذه المعرفة وتجلية الأسرار والحكم واللطائف التي تنتظمها كلمات القرآن الكريم، وأول هذه العلوم التي اعتنى بها المفسرون هو علم لغات العرب ولهجاتهم، وإذا كان القرآن الكريم لم يخرج عن ميدان اللغة العربية، واشتمل على مفردات مستخدمة في معناها الحقيقي، يستطيع المفسر أن يتعرف على روح النص ويدرك مغزاه .

Abstract

Manifestations of integration between Islamic and Arabic sciences

"Explanation as a model"

Professor Dr. Abdel Fattah Abdel Ghani Al-Awari

Praise be to God, and prayers and peace be upon our master Muhammad and his family and companions and those who follow him.

And after،،،

I am pleased to participate in research on this comprehensive and comprehensive title that establishes one of the most important issues through which cognitive integration, brotherhood, synergy, and mutual support occur between all other sciences, whether those sciences are machine sciences, or purposeful sciences. This title, the integration of knowledge between the sciences and its impact on intellectual balance and societal reality, was a title of great importance, and by achieving it, complementarity is achieved, and the grains of this unique and consistent contract are organized, without the slightest defect between them, and each of these sciences takes what it needs from the other science, and thus the cognitive structure is straightened. And the cognitive bases of the sciences are achieved, and if we look at the precise

specialized rule with the long study of it, the length of living with it, the permanent companionship, and the long companionship from which the eyes have been removed, which is the science of interpretation; We find that it is a science in which all the other sciences are organized in its path. Interpretation will not achieve its goal and the purpose behind it will not be revealed unless the seeker of interpretation and whoever addresses this honorable science is well-versed in Arabic sciences such as linguistics, etymology, grammar science, literature sciences, rhetorical sciences, meanings, exposition, and creativity, the science of monotheism, and the science of The literature of research and debate, the science of logic, dialogue and debate, the science of the foundations of jurisprudence and hadith and its sciences, the biography of the Prophet, the science of human conditions and history, and other of these sciences, which once mastered by whoever wants to tackle the interpretation of the Book of God; He was qualified to declare, clarify, and explain to people the meaning of God's words to the extent of his human ability.

Ladies and Gentlemen:

If we go and follow the books of interpretation, we will

find that the care of the interpreters is prominent in their learning from all other sciences and their mastery of them, and they take the greatest chance in order to achieve their knowledge of what is meant by the words of God Almighty, and how they reach the revelation of the secrets of His words, and the knowledge of the profound wisdom from Him to the extent of their human capacity, so we do not see a single one of them. Averting his attention from those sciences that are tools and means used by the researcher in interpreting the Book of God Almighty in order to know it, and revealing this knowledge and revealing the secrets, wisdom and subtleties that are organized in the words of the Holy Qur'an. The first of these sciences that the interpreters paid attention to is the knowledge of the languages of the Arabs and their dialects, and if The Holy Qur'an did not depart from the field of the Arabic language, and it included vocabulary used in its real meaning, and other vocabulary used in its metaphorical meaning, so it is not permissible to resort to the Book of God Almighty except after exploring the Arabic language so that the interpreter can recognize the spirit of the text and realize its meaning.

بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

فضيلة الأستاذ الدكتور عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بسوهاج– رئيس المؤتمر.

صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور/ وكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب – أمين المؤتمر .

سعادة الدكتورة : فاطمة محمد المهدي/ وكيلة الكلية للدراسات العليا والبحوث – مقرر المؤتمر

حضرات السيدات والسادة :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد ....،،،

فيسرني أن أشارككم هذا الفرح وذلكم المحفل العلمي لمؤتمركم الدولي الثاني لتلك الكلية العريقة بجامعة الأزهر بمحافظة سوهاج ، وحسنا ما صنعت تلك الكلية بريادة وقيادة علماؤها وأساتذتها ومفكريها أن اختارت هذا العنوان الجامع المانع الذي يؤصل لقضية من أهم القضايا التي بتحققها يقع التكامل المعرفي والتآخي والتآزر والتعاضد بين سائر العلوم سواء أكانت تلك العلوم علوم آلة، أو علوم مقاصد؛ فكان هذا العنوان التكامل المعرفي بين العلوم وأثره في التوازن الفكري والواقع المجتمعي عنوانا من الأهمية بمكان، وبتحققه تتحقق التكاملية، وتنتظم حبات هذا العقد الفريد المتسق الذي لا يقع بينه أدنى خلل، ويأخذ كل علم من هذه العلوم ما يحتاج من العلم الآخر، وبهذا يستقيم البناء المعرفي، وتتحقق القواعد المعرفية للعلوم، وإذا نظرنا بحكم تخصصي الدقيق مع اجالة النظر فيه وطول المعايشة له والملازمة الدائمة والصحبة الطويلة التي انزوت منها العيون وهو علم التفسير؛ فإننا نجده علما انتظم في سلكه سائر العلوم ، فالتفسير لا يتحقق الهدف منه ولا تنكشف الغاية من ورائه إلا اذا

كان طالب التفسير ومن يتصدى لهذا العلم الشريف متضلعا في علوم العربية كعلم اللغة والاشتقاق وعلم النحو وعلم الأدب وعلوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وعلم التوحيد، وعلم أدب البحث والمناظرة، وعلم المنطق والحوار والجدل، وعلم أصول الفقه والحديث وعلومه، والسيرة النبوية، وعلم أحوال البشر والتاريخ، وغير ذلك من هذه العلوم التي متى أتقنها من يريد أن يتصدى لتفسير كتاب الله؛ كان مؤهلا بأن يصرح ويجلي ويبين للناس المقصود من كلام الله على قدر طاقته البشرية .

السيدات والسادة:

لو ذهبنا نتتبع كتب التفسير لوجدنا عناية المفسرين بارزة في اغترافهم من سائر العلوم واتقانهم لها وأخذهم بالحظ الأوفر من أجل تحقيق معرفتهم للمراد من كلام الله عز وجل، وكيف يصلون إلى الكشف عن أسرار كلماته، ومعرفة الحكمة البالغة منه بقدر طاقتهم البشرية، فلا نرى واحدا منهم صرف نظره عن تلك العلوم التي تعد أدوات ووسائل يستعين بها الباحث في تفسير كتاب الله عز وجل على معرفته، والكشف عن هذه المعرفة وتجلية الأسرار والحكم واللطائف التي تنتظمها كلمات القرآن الكريم، وأول هذه العلوم التي اعتنى بها المفسرون هو علم لغات العرب ولهجاتهم، وإذا كان القرآن الكريم لم يخرج عن ميدان اللغة العربية، واشتمل على مفردات مستخدمة في معناها الحقيقي، ومفردات أخرى مستخدمة في معناها المجازي، فلا يحل الإقدام علي كتاب الله تعالي إلا بعد التبحر في لغة العرب حتى يستطيع المفسر أن يتعرف على روح النص ويدرك مغزاه .

كما نجد أن عناية علماء التفسير بعلم المنطق كانت عناية لا حدود لها؛ لانهم يعلمون أن علم المنطق لا غنى عنه لأي تخصص من التخصصات، ويؤمنون بأن قواعد المنطق وقوانينه تعصم الذهن عن الخطأ في التفكير كما أن النحو يعصم اللسان عن اللحن في الكلام .

يقول حجة الإسلام الغزالي في المستصفى: (علم المنطق مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلاً) اهـ[1].

ومع هذا فإن البعض يظن غياب علم المنطق عن الصدر الأول، ولم يدرك هؤلاء أن علم المنطق كان يدوّن تحت اسم (كتاب النظر) أو (كتاب الجدل) أو (كتاب مدارك العقول) وهذه أبواب عريقة في كتب المتكلمين بل من نظر في " الرسالة " للإمام الشافعي ﷺ أدرك التدوين، والممارسة المنضبطة لعلم المنطق على أرفع ما يكون، ولكن لا تغلب هذه الشبهة إلا على عقول المتشككين بعلوم الشريعة أو الناظرين إليها نظر قصور.

بل إن المانعين من قراءة علم المنطق من المتأخرين... إنما حملهم على هذا فرط ذكائهم، وحدّة عقولهم، لا كما قد يتبادر للذهن من كون هؤلاء ضعفة في النظر العقلي إذْ لا يقال هذا لإمام كالإمام النووي رحمه الله تعالاً مثلاً وهو أحد المانعين، ولكن لما رأى من نفسه، وعلماء زمانه ومن سبقهم الانضباط التام في البحث، فلا تجد خلطاً، ولا عبثاً فيه وهم إلى هذا لم يُعْنّوا بالمنطق ومصطلحاته.. لاحت لهم لائحة المنع، ولاسيما وقد مزج بعض المؤلفين أمثلة وشبهات، قد يَعْسُر إزالتها إن تمكنت من الفؤاد، فقالوا ما قالوا في شأن المنع، وإنما عمدتنا جماهير العلماء– وعلى رأسهم إمامنا– حجة الإسلام الغزالي– القائلون بجواز أو نَدْب النظر في هذا العلم العريق. اهـ[2].

وقال – رحمه الله – مجلياً قدر المنطق، ومدى الحاجة إليه وذلك في مقدمة كتاب معيار العلم، لبيان الباعث على تحريره هذا الكتاب المعني بمسائل علم المنطق كإحدى جهات التكوين المعرفي لدى العلماء والنظار، وأهل الحذق والدرّبة: (إن الباعث على تحرير هذا الكتاب الملقب بـ " معيار العلم " غرضان مهمان:

---

(١) المستصفى (١/٣٠).

(٢) مقدمة معيار العلم حجة الإسلام الغزالي ص٢٤ – ٢٥.

أحدهما: تفهيم طريق الفكر والنظر، وتنوير مسالك الأقيسة والعبر[١] فإن العلوم النظرية لما لم تكن بالفطرة، والغريزة مبذولة موهوبة... وكانت– لا محالة – محصلة مطلوبة وليس كل طالب يُحسن الطلب، ويهتدي إلى طريق المطلب، ولا كلُّ سالك للطريق يهتدي إلى الاستكمال، ويأمن الاغترار بالوقوف دون ذروة الكمال ولا كل ظانّ للوصول إلى شاكلة الصواب آمنٌ من الانخداع بلامع السراب، فلما كثر في المعقولات مزلّة الأقدام، ومثاراتُ الضلال، ولم تنفك مرآة العقل مَما يكدّرها من تغليطات الأوهام، وتلبيسات الخيال رتبنا هذا الكتاب معياراً للنظر والاعتبار، وميزاناً للبحث والأفكار، وصيقلاً للذهن ومِشْحَذاً للقوة المفكرة من العقل[٢] ليكون بالنسبة إلى أدلة العقول كالعروض بالنسبة للشعر، والنحو بالإضافة إلى علم الإعراب.

فكما لا يُعَزَفُ منزحف الشعر عن موزونه إلا بميزان العروض، ولا يُميَّزُ صواب الإعراب عن خطئه إلا بمِحَكَّ النحو... كذلك لا يُفْرق بين فاسد الدليل، وقويمه، وصحيحه، وسقيمه إلا بهذا الكتاب– يعني به المنتظم لمسائل المنطق وقضاياه– فكل نظرٍ لا يتزن بهذا الميزان، ولا يتقدَّر بهذا المعيار فاعلم أنه فاسد العيار[٣] غير مأمون الغوائر والأغوار.

والباعث الثاني: حاصله أن الناظر بالعيْن العوراء نظر الطعن والازدراء ينكر انحرافنا عن العادات في تفهم العقليات القطعية بالأمثلة الفقهية الظنية، فليكفَّ عن غُلَوائه في طعنه، وازدرائه، وليشهدْ على نفسه بالجهل بصناعة التمثيل، وفائدتها، فإنها لم توضع إلا لتفهيم الأمر الخفي بما هو الأعرف عند المخاطب المسترشد ليقيس مجهوله إلى ما هو معلوم عنده، فيستقرّ المجهول في نفسه.

---

(١) العِبَر: جمع عبرة، وهي حاصل النظر، ونتيجته ا هـ محققه.

(٢) المِشحَذ: المسَنّ، والصقل: الذي يُشْحذ السيوف ويجلوها ا هـ محققه.

(٣) العيار والمعيار بمعنى: وهو الذي يقس به غيره ويَسوَّى ا هـ محققه.

فإن كان الخطاب مع نجارٍ لا يُحْسن إلا النجر، وكيفية استعمال آلاته... وجب على مُرْشِدِه ألا يَضْرب له المثل إلا من صناعة النجارة، ليكون ذلك أسبق إلى فهمه، وأقرب إلى مناسبة عقله، وكما لا يُحسْن إرشاد المتعلم إلا بلغته... لا يُحْسن إيصال المعقول إلى فهمه إلا بأمثلة هي أثبت في معرفته اهـ كلامه(١).

أرأيت كيف كانت عناية العلماء في التكوين الفكري بعلم المنطق، وكيف نظروا إلى أهمية مسائله ؟ وخطورة قضاياه، وأنه لا غنى عنها للنظار والحذاق من أهل الشريعة القائلين بضرورة النظر في علم المنطق، حتى رأيت معي ما قرره حجة الإسلام الغزالي في مستصفاه طيب الله ثراه: من قوله: (ومن لا يحيط بها – يعني مقدمته المنطقية – فلا ثقة له بعلومه أصلاً)اهـ(٢).

السيدات والسادة:

أما لو ذهبنا إلى معرفة عناية العلماء بعلم الكلام لوجدناهم يقررون أن هذا العلم هو أفضل العلوم وأجلُّها، وآكدها وأهمُّها؛ لأنه العلم الموصل لصاحبه إلى درجة اليقين، وسلامته من زيغ الزائغين، ونجاته من الخلود في دار الجحيم، وفوزه برؤية رب العالمين في دار النعيم، قال الإمام القرافي: "علم أصول الدين هو أصل العلوم كلها؛ لأنَّه يتضمن العلم بالوجود، وأقسامه، والعلم بالعدم وأقسامه، وما هو معلوم خارج عن النقيضين فيبحث في العالم، وأجزائه، وأحواله، وصانع العالم، وصفاته، وأحكامه، وما وراء ذلك من المستحيلات، والممكنات، وغير ذلك من سائر المعلومات.

ومن فروعه إثبات النبوات بالنظر العقلي في المعجزات، ومن فروع النبوة علم التفسير، وعلم الحديث وعلم الأصول التي ينبني عليها الفقه".أهـ(٣).

---

(١) معيار العلم ٤٧ – ٥٠ باختصار وحذف، ط. سقيفة الصفا العلمية بلوانا – ماليزيا.

(٢) المستصفى ٣٠/١، وراجع معه المنقذ من الضلال ص٧٢.

(٣) نفائس الأصول للقرافي (١٦٣/١).

ومن ثمَّ عُني العلماء بهذا العلم الجليل عنايةً فائقةً، وأولوه اهتمامًا بالغًا، فأكثروا فيه من المؤلفات، وعدَّدوا فيه من المصنَّفات التي بُنيت على أمرين:

أحدهما: إثبات العقائد وإقامة البراهين العقلية والنقلية عليها.

والآخر: الردّ على الطوائف من أهل البدع والأهواء كالخوارج، والروافض، والجهميَّة، والمعتزلة، والقدريَّة، والمرجئة وغيرهم، لتفنيد شبهاتهم، وكشف ضلالاتهم وإبطال استدلالهم على بدعهم وآرائهم المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة.

وإذا كانت العلوم إمَّا عقلية محضة، وإمَّا نقلية محضة، فإنَّ أشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الكلام من هذا القبيل فإنَّه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد(١).

وهذا هو الطريق الوسط الذي قرَّره حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في ردّه على مَنْ جمد عند حدِّ التقليد، وتمسك بظواهر النصوص، أوْ مَنْ أوغل إيغالًا شديدًا في التنكر لقواطع الشرع، وتقديم العقل بالكلية عليها، فاقرأ ما سطره قلم هذا الإمام لتر سدادًا في الفكر، وسلامة في المقصد، واقتصادًا في مراعاةٍ تامةٍ بين الشرع المنقول، والحق المعقول، وكلُّ ذلك لا يتحقق في البناء المعرفي والتكوين الفكري إلا بالتمرس وإتقان قواعد وأصول الدين (علم الكلام) أو (علم الفقه الأكبر).

قال – عليه سحائب الرحمة – ناعيًا على هؤلاء وهؤلاء، ومقرِّرًا الطريق الوسط: "الحمد لله الذي اجتبى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة، وخصهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التي قمع بها

(١) أفدته من مقدمة الغزالي في المستصفى ١/٤.

ضلال الملحدين، وصفى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين، وعمر أفئدتهم بأنوار اليقين حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد ﷺ سيد المرسلين، واطلعوا على طريق التلفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول؛ وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول. وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر. وإن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم؛ فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم انه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر؟ أو لا يعلم أنَّ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟ هيهات قد خاب على القطع والبتات وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات".أهـ[١].

وتتجلى ثمرة هذا العلم في بيان : أنَّ العقل أصل النقل – كما قال الإمام الرازي – رحمه الله – في المحصول، ووضَّح المراد منه شارحه الإمام القرافي، وذلك حيث يقول طيب الله ثراه:" تقريره أن كلام النبوة مبني على المعجزة، وهي لا تعلم إلا بالعقل، فصار العقل أصل النقل، فلو قدحنا في العقل تطرق القدح في المعجز، فيحصل القدح في النقل".أهـ[٢].

(١) الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ٩-١٠).

(٢) نفائس الأصول(٣/ ١٠٨٣).

ومن ثمَّ ترى ألا تعارض بين المعقول والمنقول، كما يقول العلامة الزركشي نقلًا عن القاضي أبي بكرٍ:" لَا يَجُوزُ تَعَارُضُ آيٍ الْقُرْآنِ وَالْآثَارِ وَمَا تُوجِبُهُ أَدِلَّةُ الْعَقْلِ أه[1].

وبهذه العناية بعلم الكلام تكون الملكة منضبطة، والقريحة متقدة، والبصيرة نافذة، والفهوم واعية، و يتحقق التكامل المعرفي، والبناء الجامع بين نوري النقل والعقل ، ويتجلى لكل من يسعى جاهداً لفهم مراد الله وكلامه أنه لا تعارض بين أدلة النقل وما توجبه أدلة العقل .

السيدات والسادة:

أما إن يممنا وجهتنا إلى عناية العلماء في التكوين المعرفي بعلوم العربية التي تصون اللسان عن اللحن والتحريف للكلم عن مواضعه، فإننا نرى وجهاً مشرقاً، وجانباً مضيئاً، ومطلباً نفيساً، ومسلكاً شريفاً في النحو وأدواته ذلكم " لأن العربية بمعرفتها تُعْرفُ مقاصد العرب من كلامهم، وأدب لغتهم سواء جعلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

" إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه وبدون ذلك يقع الغلط، وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي وهي: متن اللغة والتصريف والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل، والاستئناس للتغيير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٥١، ٥٢).

المولدين"اهـ[١].

وبهذا يتجلى لك أيضاً حاجة من يريد تحقيق جانب من البناء المعرفي، وترسيخ ركن من أركان التكوين الفكري، فالتضلع في جانب اللغة أمر من أهم المهمات، وأسمى الغايات ولذلك جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله: " عليكم بديوان العرب فإنّ فيه تفسيراً لكتاب ربكم "[٢] وقول الإمام مالك ﷺ: " لأن أوتي برجل يفسر كلام الله تعالى دون معرفة بلغة العرب إلا أوجعته ضرباً "[٣].

يقول الزركشي عليه الرحمة: (وإنما يفهم بعض معانيه – أي القرآن – ويطلّع على أسراره ومبانيه، من قوى نظره، واتسع مجاله في الفكر وتدبره، وامتدّ باعه، ورقيّت طباعه، وامتدّ في فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب " اهـ المقصود منه[٤].

ومثل هذا يقال في علم التصريف، فالكلمة بتصريفها يتحول فيها المعنى قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٦] فانظر كيف تحول المعنى بالتصريف من الجَوْرِ إلى العدل[٧]؟

---

(١) تراجع: مقدمات التحرير ١٨/١.

(٢) أورده الواحدي في البسيط ١٤٣/١، وذكره الشاطبي في الموافقات ٨٨/٢.

(٣) قول مالك رواه البيهقي في الشعب ٤٢٥/٢ – ٤٢٦ فصل في ترك التفسير بالظن برقم (٢٢٨٧) وأورده الحافظ السيوطي في الإتقان ٢٢٨٨/٦، بلفظ: (لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسّر كتاب الله إلا جعلته نكالاً). وأخرجه الواحدي في التفسير البسيط ٤١١/١.

(٤) البرهان ٩٧/١.

(٥) سورة الجن: ١٥.

(٦) سورة الحجرات: ٩.

(٧) يراجع: البرهان ٤٠٢/١.

ولأن الإعراب فرع المعنى؛ يوضح ابن جني أهمية علم الإعراب بالنسبة للعلوم الشرعية وبخاصة علم التفسير في الكشف عن المعاني، فيقول:" باب القول على الإعراب: هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه وشكر سعيدًا أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام واحدًا لاستبهم أحدهما من صاحبه". أهـ(١).

لذا وجب "عَلَى النَّاظِرِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَاشِفِ عَنْ أَسْرَارِهِ النَّظَرُ فِي الْكَلِمَةِ وَصِيغَتِهَا وَمَحَلِّهَا كَكَوْنِهَا مُبْتَدَأً أَوْ خَبَرًا أَوْ فَاعِلًا أَوْ مَفْعُولًا أَوْ فِي مَبَادِئِ الْكَلَامِ أَوْ فِي جَوَابٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

السيدات والسادة:

لقد فطن المفسرون إلى أنه لن يتحقق التكامل المعرفي إلا بإتقان علوم البلاغة الثلاث ؛ لذا كانت عنايتهم بعلوم البلاغة لا تقل عن غيره من العلوم بل تزيد ؛ ذلكم لأنهم يؤمنون إيمانا تاما أن هذا العلم هو أعظم أركان المفسّر، وأنه لابُدّ أن يراعي المفسر ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز، وتأليف النظم، وأنْ يواخي بين الموارد، ويعتمد ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر وغير ذلك...

قال السكاكي: " واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك، ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك، ولا يمكن وصفها، وكالملاحة ولا طريق إلى تحصيله لذوي الفطرة السليمة إلا إتقان علمي المعاني والبيان، والتمرن فيهما "اهـ(٢).

---

(١) الخصائص ٣٦/١.

(٢) مفتاح العلوم ١٦٢ – ٢٤٨، ولابن أبي الحديد كلام قريب من هذا فارجع إليه في شرح نهج البلاغة ١٤٣/١ حيث قال: (اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق من الكلام أمرٌ لا يُدْرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة عليه، وهو بمنزلة جاريتين إحداهما بيضاء مُشْرَبَةٌ بحمرة دقيقة الشفتين، نقية الثغر كحلاءُ العينين أسيلة الخدّ (أملس مستوٍ) دقيقة الأنف معتدلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن لكنها أحلى في العيون والقلوب منها، ولا يُدْرَى سبب ذلك ولكنه يُعْرف بالذوق والمشاهدة، ولا يمكن تعليله، وهكذا الكلام) ا هـ.

وقال الزمخشري رحمه الله: " من حق مفسّر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه، بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح، وإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل " اهـ(١).

تأمل كيف كان التكوين المعرفي أساساً في التكوين الفكري، ومقتضى من مقتضيات مَنْ تَعرْض لتفسير كتاب الله عز وجل، وكلامه المعجز، ويهدف إلى تحقيق بناء النظم القرآني على حسنه، وجماله، ويحفظ على البلاغة كمالها وبهاءها.

كل هذا يبني عقلية طالب العلم، كي يرتكز فهمه على الوسطية والسداد، فتراه جامعاً في بنائه المعرفي بين صحيح المنقول، وصريح المعقول، وهذا منهج راعاه التعليم الأزهري في القديم ويراعيه حديثاً في تربية وصَقْلِ عقول أبنائه المنتسبين إليه:

–وما أشد الحاجة كذلك –في البناء المعرفي– إلى علمي البيان والمعاني، وذلك لما لهما من مزيد اختصاص– بنموذجنا– علم التفسير، لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كان هذان العِلْمَان يسميان في القديم علم دلائل الإعجاز "(٢).

والناظر في كتب المفسرين يرى عجباً من دقة الملحظ، وحسن الصياغة، وجودة الفكرة، وعمق الدلالة ؟ وكيف أن هؤلاء في كل مجالٍ أخذوا على عاتقهم واجب التكامل المعرفي ؟ فأعدّوا له عدته من كل علمٍ، ومن ثم أنتجوا المختصرات والوسيط من المؤلفات، والبسيط والمطولات، وكتبت على هذه

(١) الكشاف ١٨٨/١ ذكر هذا الكلام الدقيق في مبناه ومعناه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ من سورة البقرة الآية (١٥).

(٢) تراجع: مقدمة التحرير والتنوير ١٩/١.

الكتب شروح، وكتبت على الشروح حواشي ووضعت على الحواشي تقريرات، ونظمت العلوم منظومات، وكتبت المتون لها، وأتى جيل آخر فاستوعب سائر الفنون، وحفظ هاتيك المتون، وجود الشروح، ووعى الحواشي، واستلهم التقريرات، فأصبح الواحد منهم في تكامله المعرفي ذا قريحة متقدة، وملكة حادة، بها يقارن ويناظر، ويعارض، ويناقش، ويسوق الحجج ويأتي بالبراهين على ما يرتضيه من رأى، ويسلك مع مخالفه في الرأي سبيل النقض، والمعارضة ، وإنْ رمت دليلاً على ذلك فتأمل تراث المفسرين وعاود التأمل والنظر يرتد إليك بصرك متعباً كليلاً من دقة ما يراه.

السيدات والسادة:

أما عن أهمية علم أصول الفقه في تحقيق التكامل المعرفي ، فلا يخفى على ذي لب أن المفسر لابد أن عارفا كيف يستنبط الأحكام الشرعية ، ولا يستطيع ذلك ما لم يكن عارفا بقواعد علم الأصول .

وقد اهتمَّ العلماء في هذا العلم الأصيل– على سبيل المثال– بتعليم طلاب العلم كيفية الاستدلال بالخطاب، فالخطاب: " إما أن يدل على الحكم بلفظه، أو بمعناه، أو لا يكون كذلك، ولكنه بحيث لو ضم إليه شيء آخر، لصار المجموع دليلا على الحكم .

السيدات والسادة:

إن معرفة قصد الشارع ومراده هو المقصود الأول من الاستنباط والاجتهاد؛ لذا فإنه لن يتحقق التكامل المعرفي إلا بمعرفة علم المقاصد، ولقد أحاط القرآن الكريم بأصول ما يلزم لحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فللمحافظة على الدين وضع قواعد الإيمان وفرض أنواع العبادات، ثم حاطها بسياج رادع يمنع عوامل الشر والفساد أن تعبث بها أو تمتد إليها فأوجب عقوبة من يعتدون على الدين أو يصدون عن سبيله أو يقفون في وجه الدعاة إليه، وللمحافظة على النفس أباح جميع الطيبات وأحل البيع والشراء والرهن والإجارة

وما إليها من معاملات ، ثم شرع ما يمنع الإعتداء عليها فأوجب القصاص، وفرض الديات ، وللمحافظة على العقل أباح كل ما يكفل سلامته، ويزيد نشاطه، وحرم ما يفسده أو يضعف قوته، وللمحافظة على النسل شرع الزواج، وفرض الحد الذى من شأنه أن يردع عن الإثم والفحش والفساد، وللمحافظة على المال والعناية بأمر تدبيره ووجوه الانتفاع به شرع نظام المعاملات وحرم الغش والتغرير والربا وكل ما فيه أكل أموال الناس بالباطل، وفرض ضمان المتلفات وشرع الحد في السرقات .

ولا يخفى أن معرفة المقاصد للمفسر تمكنه من أن يحقق للشريعة أغراضها من تحصيل المصالح ودرء المفاسد .

السيدات والسادة :

ولما كان تعريف القرآن للأحكام أكثره كلى لا جزئي وأجمالي لا تفصيلى كان التكامل في الوقوف على حقائقه بالرجوع إلى السنة المطهرة المبينة له الشارحة لما خفي فيه، وهذا مما شرف الله به هذه الأمة إذ لم يهمل عقولها ويلقنها أحكام الجزيئات تفصيلا كما كان عليه الحال في الأمم السابقة، ولتكون الشريعة الاسلامية عامة وقواعدها ثابتة لا يطرأ عليها بعد استقرارها نسخ ولا يعتريها تغيير، فليس معنى أن القرآن تبيان لكل شيء أنه أحاط بجزئيات الوقائع والحوادث ونص على تفاصيل أحكامها، وإنما هو تبيان لكل شيء من حيث أنه قد أحاط بجميع الأصول والقواعد، فالأحكام التي أتت في القرآن الكريم محكمة ثابتة لا تختلف وعامة كلية يمكن أن تتمشى مع اختلاف الظروف والأحوال التي تحتاج إليها الأمم في تدبير شئونها وتنظيم حياتها، فهي صالحة لمسايرة هذه الحياة في جميع تطوراتها ومراحل تقدمها ورقيها، ثم جاءت السنة توفي لذلك حقه من الشرح والبيان والتكميل والتعليل والتنظير وضرب الأمثال، ولقد بين النبي صلى الله عليه وسلم بأقواله وأعماله أحكام ما كان

يعرض للناس من الحوادث، فالأحاديث النبوية المطهرة التي بينت العبادات وكيفيتها ، كفريضة الصلاة مثلا ، فقد فرضها الله عز وجل في القرآن الكريم من غير أن يبين أوقاتها وعدد ركعاتها وأركانها وكيفيتها، كذلك لم يتعرض القرآن لتفصيل أبواب المعاملات، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم ببيان ما يصح من العقود والتصرفات وما لا يصح .

والمطالع لطرائق المفسرين في البناء المعرفي يجد ما يروي الغليل، ويشفي العليل، من مقدمات راسخات كدعائم لبناء أصيل تحتاج أركانه إلى ذلك، فلا تؤثر فيه عوامل الزمن، ولا يعتوره أي خلل.

فمقدمة جامع البيان في تفسير آي القرآن لشيخ المفسّرين ابن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ) قد تضمنت من البناء المعرفي، والتكوين الفكري ما يكون صالحاً لتحصين العقول من الانحراف، وسلامة الأقدام من المزالق والعثرات، وتأمين الفكر من شطحات الغلو والجمود، والتشبث بظواهر النصوص دون فهمها، وفقهها.

ولو طالعت مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي المتوفى (٦٠٦ هـ) لوجدت مخزوناً ضخماً لا مثيل له في البناء المعرفي، والتكوين الفكري يتمثل هذا المخزون في مقدمته الرصينة لكتابه النفيس بما انتظمه من مقاصد سديدة، ومطالب شريفة كل هذا يتضمن في فاتحة الكتاب، وذلك كحديثه عن المباحث المتعلقة بالكلمة وما يجري مجراها، وهل يطلق الكلام على المهمل؟ وهل الأصوات الطبيعية تسمى كلاماً ؟ وهل يستعمل القول في غير النطق ؟ وكون دلالة اللفظ على معناه غير ذاتية وهل اللغة إلهام أو كسب ؟ وبيان الحكمة في وضع الألفاظ للمعاني، وبيان الكلام النفسي، والذهني، وطريق معرفة اللغة، وبيان أن من اللغة ما بلغنا بالتواتر، وهل دلالة الألفاظ على معانيها ظنية ؟ وبيان الخلاف بين الحشوية والأشاعرة في صفة القرآن، ناهيك عن اللطائف التي ساقها عند تفسيره لسورة الفاتحة، إلى غير ذلك مما نطالعه في ديباجة

مفاتيح الغيب على صاحبه سحائب الرحمات، وقد استغرقت ما يقارب جزءاً كاملاً من أجزائه(١).

وأيضاً لو اكتحلت عيناك برؤية مقدمة المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية الغرناطي المتوفى عام (٥٤٦ هـ)- على التحقيق- لوجدت عناية فائقة منه بالبناء المعرفي، والتكوين الفكري الذي جعله الربّان الماهر في قيادة سفينة طلب التفسير وسط أمواج هادرة، وبحر عميق لا ساحل له، زاخر بالمعاني والأسرار واللطائف والحِكَم المتعلقة بكلمات الله تعالى، فقد أورد باباً في فضل تفسير القرآن، والكلام على لغته، والنظر في إعرابه، ودقائق معانيه، وأبان عن أنَّ إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع أه(٢)، وساق عليه الرحمة باباً في الكلام على التفسير، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين، ومكانة القراءات القرآنية وما دلّ عليه نزول القرآن على سبعة أحرف، وما جاء في جمع القرآن، وشكله وحفظه، وتحزيبه، وتعشيره، وتحقيق القول في مسألة الألفاظ التي جاءت في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق، وذكره لنبذة من كلام العلماء في إعجاز القرآن، وبيان أوجه إعجازه وتحقيق مسائله، إلى آخر ما ساق عليه الرحمة من مباحث ومسائل استفتح بها تفسيره، وجمّل بها ديباجة كتابه مما يقضي به شأن العناية بالبناء المعرفي، والتكوين العلمي، والمخزون الفكري الجامع بين الرواية والدراية، القائم على ضياء النقل، ونور العقل المتبصر(٣).

وكل هذا يُنبئك عن مظاهر التكامل بين العلوم الشرعية والعربية عند التصدي لتفسير كتاب الله تعالى .

---

(١) تراجع: مقدمة مفاتيح الغيب ١٧/١ فما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٤٣/١.

(٣) تراجع: مقدمة المحرر الوجيز لابن عطية ١/١ – ٨٣ ففيها البسط لما أجملنا لك بعضًا من منهجيته الدقيقة التي سلكها في البناء المعرفي والفكري.

والكلام في ذك طويل الذيول ، وهو مبسوط في مظانه من الكتب، ولما كان وقت المؤتمر أو الزمن المحدد لمثل هذه الكلمة لا يحتمل أكثر من ذلك، فإني أكتفي بهذا القدر، وفي ختام كلمتي أتمني لمؤتمركم هذا التوفيق والسداد، وأن يصل هذا المؤتمر المبارك بموضوعاته إلى ما تصبوا إليه النفوس من توصيات يتجلى من خلالها تحقق التكامل المعرفي بين العلوم ويبرز الأثر على الفكر والواقع المجتمعي

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وكتبه أبو عبد الرحمن

أ.د / عبد الفتاح عبد الغني العواري

عضو مجمع البحوث الإسلامية

ورئيس مركز الإمام الأشعري

وعميد كلية أصول الدين سابقا